لعل اختلاط الأضداد لم يفارق عقل المازنى شعرا ونثرا . وتستطيع أن تقول إن صوت المازنى ظل على الدوام مشرقا محزونا . ولأمر ما ظهرت هذه الحسناء فى عالم الطبيعة لا فى دنيا البشر . أكبر الظن أن عقل المازنى استطاع أن يحول مظاهر الطبيعة المتميزة الى شخصية موحدة متفردة ، فهو يريد أن يجمع الكل المتفرق ، وأن يتصور شيئا يسمونه الوحدة من خلال التنوع . فلنحاول أن نجرب هذا المفتاح :

الماء متدفق ولكنه يرقص . والرقص فى الحقيقة ـ يحول دون التدفق أو يجعله مزيجا من التقدم والتأخر . وهنا تبدو الأضداد مرة أخرى .

لنلاحظ أن المازنى يبحث عن نسق موسيقى فى مظاهر الطبيعة . ومن أجل هذا النسق خيل إليه أن أشجار الورد تحنو على الإنسان حتى تصبح فى نظره وحدة إنسانية كاملة أو شبه كاملة . ومع ذلك فإن النسق مجمع الشحوب والجمال . هذا هو البدر المكتمل ، ولكنه لايرقص كما يفعل الماء . الماء يتدفق راقصا ، فهو يتمتع بحركة ونظام . وهو يتقدم ويتقهقر دون أن يشعر بجور على حريته أو نظامه . أما البدر فقد تعرض ـ على الرغم من اكتماله ـ للأرق والشحوب . وبعبارة أخرى اضطر بعد بلوغ نضجه إلى معاناة الرغبة فى تجربة النقص والحاجة . وقد خالط بياضه ونوره وإشراقه شحوب .

لا أحد يطمئن إلى هذا البدر اطمئنانا تاما ، فهو مؤرق أو متوجس ، وهو مجمع هموم غريبة . فهذه الأرض أمامنا قد يقال إنها فرحة بما فيها من ورد وماء ورقص . وهذه السماء تطل على الأرض مهمومة بما أصاب البدر . وقد يقال إن البدر يتطلع الى الماء والورد . ولكن لأمر ما فارق الابتهاج . ويبدو غير مطمئن على الرغم من بواعث الحياة والازدهار التى تبدو أمام عينيه .

الواقع أن المازنى يترجم عن الليل المقمر ترجمة تملأ عليه عقله حيث يقول :

والليل طفل شاب مفرقه

فالليل المقمر طفل عجوز . وهكذا نستطيع أن نفهم كيف كان البدر شاحبا مؤرقا . لأنه ناشىء تدب فيه روائح الشيخوخة ، وقد رقص الماء الذى انعكست عليه أضواء البدر ، وظهر لنا أن الطفل الشيخ هو الذى منح الماء والورد ما يتمتعان به . وليس لنا أن نظن فى جمال الليل والبدر والماء سذاجة لاتشوبها شائبة .